ضوء جديد على ناحية من الأدب العربي

اشتغال العرب بالأدب المقارَن

أو ما يدعوه الفرنج « littérature comparée »

في كتاب تلخيص كتاب أرسطو في الشعر

لفيلسوف العرب أبي الوليد بن رشد

[تابع المنشور في العدد الماضي]

— تلخيص وتحليـــل —

للأستاذ خليل هنداوي

أما غاية صناعة الشعر فلم تخرج عن غاية الفلسفة لأن المؤلف والمترجم فيلسوفان يقيسان كل شيء ، ويقدرانه بحسب فائدته الخلقيـة ، وهما يريدان من الشعر أن يكون عاملاً على تهذيب الأخلاق حاثاً على التخلق بالآداب السامية (وهذا هو الشعر المدرسي قبل أن ينحت الفن أثلته ، وينخر غرسته) لأن الفن

---

٦ — ماثيو أرنولد (١٨٢٢ — ١٨٨٨)

أرنولد من شعراء العصر الفكتوري المجيدين ، ولكنه خدم الأدب الانجليزي بكتابه القيم (فصول في النقد Essays in criticism) أكثر مما خدمه بشعره ؛ ويكاد أرنولد يتفق وهازلت في طريقته في نقد الآداب ، غير أنه يمتاز من هازلت بأنه يخلق من القارئ نفسه ناقداً للموضوع أو الأديب الذي ينقده ، فما يكاد أحد يتلو فصولاً من كتابه حتى يحس من نفسه القدرة على النقد ، كأنما قد تقمصه أرنولد ! وهذا ما أفاض في شرحه الأستاذ هربرت بول في كتابه عن أرنولد ؛ ولولا تشكك أرنولد وكثرة حيرته ، وهما عيبان يبدوان كثيراً في فصوله ، لما قل في مرتبته عن هازلت وعن سانت بيف

وبعد ، فهذه لمحات خاطفة لسادتنا نقاد الآداب عن زملائهم (!) في بعض الأمم الأوربية ، نرجو أن يهتموا بدراستهم في المراجع التي أشرنا اليها ثم ينقدوا بعد ذلك ما يشاؤون

(ر . غ)

قد ضرب بهذه السدود ، وحطمها أي تحطيم . والشعر الفني — عند العرب — في اعتقادي — يغشى على الشعر المدرسي لأن أكثره شعر لا يدل على أن أصحابه كانوا يتورعون فيه . ولعل هذا هو ما دعا أبا نصر الفارابي الى الحملة على هذا النوع من الشعر الفني بقوله : « إن أكثر شعر العرب في النهيم والكريه ؛ وذلك أن النوع الذي يسمونه النسيب انما هو حث على الفسوق ؛ ولذلك ينبغي أن يتجنبه الولدان ويؤدبون من أشعارهم بما يحث فيه على الشجاعة والكرم ، فانه ليس تحث العرب في أشعارها من الفضائل على سوى هاتين الفضيلتين وإن كانت ليس تتكلم فيهما على طريق الحث عليهما ، وانما تتكلم فيهما على طريق الفخر ، لأن أكثر شعرهم من شعر المطايقة الذي يصفون به الجمادات كثيراً والحيوانات والنبات . وأما اليونانيون فلم يكونوا يقولون أكثر ذلك شعراً إلا وهو موجه نحو الفضيلة والكف عن الرذيلة ، وما يفيد أدباً من الآداب أو معرفة من المعارف » وقد بحث في العلل المولدة للشعر ، فكان تعليله الاول إلى الفلسفة أدنى منه إلى الشعر . وقد بنى هذه العلل على ميل الانسان إلى محاكاة الأشياء . وقد تكون — عندي — هذه المحاكاة علة صادقة مبنية على التحليل النفسي ، لأن الشاعر أقرب الناس إلى فهم الطبيعة والعمل على تحسينها وإكمالها « لأنه يلتذ بالتشبيه للأشياء التي قد أحسها وبالمحاكاة لها ليلتذ باحساسها » فما أصدق هذا الاحساس وما أبعده في تعليل العلل المولدة للشعر . إن الشاعر يأتي الطبيعة ويستجليها ويستنطقها ويبث فيها الحياة ، ليجعل فيها القدرة على مشاركته في بهجته . وجاء تعليله الثاني تعليلاً طبيعياً ، نشأ في الانسان لالتذاذه بالطبع بالوزن والالحان ... وهو في هذا لا يرى في الوزن والألحان كل الشعر إن لم تنطو هذه الألحان على محاكاة الطبيعة ؛ ثم يذهب في اختلاف طبائع الأمم ، فان الأمم التي تغلب الأخلاق عليها تميل إلى مديح الأفعال الجميلة ، والعكس بالعكس . ولا بد من ملاءمة الأوزان والألحان للمعاني ؛ فرب وزن يناسب غرضاً ولا يناسب غرضاً آخر . وعملهما فيه هو أنها تعد النفس لقبول خيال الشيء الذي يقصد تخييله . وذكر علل كثيرة للشعر ، « وانما المحاكاة هي العمود والأس في هذه الصناعة ، لأن الالتذاذ ليس يكون بذكر الشيء المقصود ذكره دون أن يحاكى . ولذلك

لا يلتذ الانسان بالنظر إلى صور الأشياء الموجودة أنفسها ، ويلتذ بمحاكاتها وتصورها بالأصباغ والألوان ؛ ولذلك استعمل الانسان صناعة الزواقة والتصوير . وهل كانت غاية المديح مثلاً إلا محاكاة الناس من قبل عاداتهم الجميلة وأمثالهم الحسنة واعتقاداتهم البعيدة ؟ ولعل أرسطو كان أكثر انصافاً لرسالة الشعر منه لرسالة الخطابة « فقد اعترف لها بأنها ليست مبنية على الاحتجاج والمناظرة ، وبخاصة صناعة المديح ، وبذلك ليس يستعمل المديح صناعة النفاق كما تستعملها الخطابة » ، وبهذا أحسن إلى الشعر ؛ وهل المادح يمدح إلا عن اعتقاد . . . . . وأساء إلى الخطابة — ولكن النفاق قد يدخل الشعر كما يدخل الخطابة ، وقد يبرأ الشعر منه كما تبرأ الخطابة منه بحسب قوة الاعتقاد وصدقه عند الشاعر والخطيب

صناعة المديح وأجزاؤها

قد أصهب ابن رشد في هذا الباب ما شاء له الاسهاب ، لأنه يراه أكثر انطباقاً على محاكاة الأخلاق الفاضلة . والفلسفة تكره المحاكاة لمجرد المحاكاة إلا أن يكون من ورائها غرض أو معنى شريف من معاني التهذيب . وقد تصدى لعلة في الشعر لا تزال فاشية في شعرنا ، هي علة « الاستطراد » في القصيدة الواحدة ، « ويشبه أن يكون جميع الشعراء لا يتحفظون بهذا بل ينتقلون من شيء إلى شيء ، ولا يلزمون غرضاً واحداً بعينه ما عدا (هوميروس) في اليونان . وأنت تجد هذا كثيراً ما يعرض في أشعار العرب والمحدثين وبخاصة عند المدح ، أعني أنه إذا عن لهم شيء ما من أسباب الممدوح مثل سيف أو قوس اشتغلوا بمحاكاته وأضربوا عن ذكر الممدوح . وبالجملة فيجب أن تكون الصناعة تتشبه بالطبيعة ، أعني أن تكون إنما تفعل جميع ما تفعله من أجل غرض واحد وغاية واحدة ، واذا كان كذلك فواجب أن يكون التشبيه والمحاكاة لواحد ومقصوداً به غرض واحد ، وأن يكون لأجزائه عظم محدود ، وأن يكون فيها مبدأ ووسط وآخر ، وأن يكون الوسط أفضلها

أما تعريفه للمحاكاة من حيث الخلق والابداع فهو تعريف نم عن إحساس عال بالشعر ، فليس الشعر يعتمد على التخييل بدون نظام ، ولا على تصوير الأشياء التي لا تجول في الذهن . « لأن المحاكاة التي تكون بالأمور المخترعة الكاذبة ليست من أفعال الشاعر — وهي التي تسمى أمثالاً وقصصاً مثل ما في كتاب كليلة ودمنة . لكن الشاعر إنما يتكلم في الأمور الموجودة أو الممكنة الوجود ؛ وأما الذين يعملون الأمثال والقصص فان عملهم غير عمل الشعراء وإن كانوا قد يعملون تلك الأمثال والأحاديث المخترعة بكلام موزون . فالفاعل للأمثال المخترعة والقصص إنما يخترع أشخاصاً ليس لها وجود أصلاً ويضع لها أسماء ؛ وأما الشاعر فانما يضع أسماء لأشياء موجودة . . . ولذلك كانت صناعة الشعر أقرب إلى الفلسفة من صناعة اختراع الأمثال » وقد أبى ذهن أرسطو إلا أن يعطف على الشعر ويجعل رسالته مشتقة من رسالة الفلسفة . وإذا نصر الفيلسوف رسالة الشعر وخصها بفضله ، فقد رام — لقاء هذا الفضل أن يضيق عليها حدودها ، « فهو يرى أن الأشياء غير الموجودة يجب ألا توضع وتخترع لها أسماء في صناعة المديح ، مثل وصفهم الجود شخصاً ثم يضمون أفعالاً له ومحاكونها ويطنبون في مدحه . فهذا النوع من التخييل وإن كان قد ينتفع به فليس ينبغي أن يعتمد في صناعة المديح لأنه ليس مما يوافق جميع الطباع بل قد يضحك منه ويزدريه كثير من الناس . » ، وقد يكون اعتقاده على حق لو كان ينطق عن غير الشعر . لأن الشعر لا منصرف له عن خلقه لكثير من أنواع التخييل ، « ومن جيد ما في هذا الباب للعرب — وإن لم يكن على طريق الحث على الفضيلة » قول الأعشى :

لعمري لقد لاحت عيونٌ نواظر ... إلى ضوء نار باليفاع تحرّق
تُشب لمقرورين يصطليانها ... وبات على النار الندى والمحلّق
رضيعي لبان ثدي أم تحالفا ... بأسحمَ داجٍ عوضُ لا تتفرق

وهو يريد من كل هذا أن ينزه رسالة الشعر عن النفاق وكذب التخييل والاختلاق . « إذ لا ينبغي للشاعر أن يأوي إلى ما يدعى نفاقاً فان ذلك إنما يستعمله الموهون من الشعراء ، أعني الذين يرون أنهم شعراء وليسوا بشعراء ؛ وأما الشعراء بالحقيقة فلا يستعملونه إلا عند ما يريدون أن يقابلوا به استعمال شعراء الزور له ، وأما إذا قابلوا الشعراء المجيدين فلا يستعملونه أصلاً . . على أن كثيراً من الأقاويل الشعرية تكون جودتها في المحاكاة البسيطة »

وقد تكون المحاكاة بسيطة مجردة ، وقد تكون مركبة تأتى بطريقة المقابلة . إذا أراد مثلاً أن يحاكى السعادة وأهلها ابتدأ أولاً بمحاكاة الشقاوة وأهلها ثم انتقل الى محاكاة أهل السعادة ، والمحاكاة الأولى هى الغالبة على شعر العرب

كقول أبى الطيب :

كم زورة لك فى الأعراب خافية
أدهى — وقد رقدوا — من زورة الذيب

فهذا البيت من نوع المحاكاة الأولى

وقوله :

أزورهم وسواد الليل يشفع لى وأنثنى وبياض الصبح يُغرى بى

فهذا من نوع المحاكاة الثانية المبنية على طريقة المقابلة

ولقد تكون المحاكاة وليدة الانفعالات النفسية كانفعالات الخوف والرحمة والحزن ، وهى تكون بذكر المصائب والرزايا النازلة بالناس . ويجب على الشاعر أن يلزم فى تخيلاته ومحاكاته الأشياء التى جرت العادة باستعمالها فى التشبيه ، وألا يتعدى فى ذلك طريقة الشعر

أما هذه المحاكاة فهى عنده على أنواع . منها محاكاة لأشياء محسوسة بأشياء محسوسة من شأنها أن توقع الشك لمن ينظر إليها ؛ وكلما كانت هذه التوهمات أقرب الى وقوع الشك كانت أتم تشبيهاً . وجل تشبيهات العرب راجعة الى هذا الموضع . وكلما كانت أبعد من وقوع الشك كانت أنقص تشبيهاً . وهذه هى المحاكاة البعيدة التى يجب أن تطرح كقول امرئ القيس فى الفرس :

« كأنها هراوةُ منوال »

ومنها محاكاة لأمور معنوية بأشياء محسوسة كقولهم فى المنة إنها طوق العنق ، وفى الاحسان إنه قيد . وهذا كثير فى شعر العرب كقول أبى الطيب :

« ومن وجد الاحسان قيداً تقيدا »

أو قول امرئ القيس :

« بمنجرد قيد الأوابد هيكل »

وما كان من هذه أيضاً غير مناسب ولا شبيه فينبغى أن تطرح ؛ وهذا كثيراً ما يوجد فى أشعار المحدثين وبخاصة فى شعر أبى تمام كقوله : « لا تسقنى ماء الملام » فان الماء غير مناسب للملام . وكما أن البعيد يجب طرحه كذلك ينبغى أن يكون التشبيه بالجنس الموجود مطرحاً أيضاً ، وأن يكون التشبيه بالأشياء الفاضلة

ومنها المحاكاة التى تقع بالتذكر كأن يرى الانسان خط إنسان فيتذكره إن كان حياً أو ميتاً ، وهذا موجود فى أشعار العرب بكثرة كقول متمم بن نويرة :

وقالوا أتبكى كل قبر رأيته لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك
فقلت لهم إن الأسى يبعث الأسى دعونى ! فهذا كله قبر مالك

وكقول المجنون :

وداع دعا إذ نحن بالخيف من منى فهيج أحزان الفؤاد وما يدرى
دعا باسم ليلى غيرها فكأنما أطار بليلى طائراً كان فى صدرى

وكقول الخنساء :

يذكرنى طلوع الشمس صخراً وأذكره لكل غروب شمس

وهذا النوع كثير فى شعر العرب ، ومنه تذكر الأحبة بالديار والأطلال . ويقرب من هذا الموضع ما جرت به عادة العرب من تذكر الأحبة بالخيال وإقامته مقام المتخيَّل كما قال شاعرهم :

وانى لأستغشى وما بى نعسة لعل خيالاً منك يلقى خياليا
وأخرج من بين البيوت لعلنى
أحدث عنك النفس فى السر خاليا

وتصرف العرب فيه كثير

ومنها الذى يستعمله السوفسطائيون من الشعراء وهو الغلو الكاذب ، وهو كثير فى أشعار العرب والمحدثين كقول النابغة يصف ضربة سيف :

تقُد السلوقىَّ المضاعف نسجه وتوقد بالصفَّاح نار الحباحب

وهذا كله كذب

(له بقية)

خليل هنداوى

مجموعات الرسالة

ثمن مجموعة السنة الأولى مجلدة ٥٠ قرشاً مصرياً عدا أجرة البريد
ثمن مجموعة السنة الثانية (فى مجلدين) ٧٠ قرشاً عدا أجرة البريد
ثمن مجموعة السنة الثالثة (فى مجلدين) ٧٠ قرشاً عدا أجرة البريد
وأجرة البريد عن كل مجلد فى الخارج ١٥ قرشاً